مقاصد التفاضل وأثره على العمران من خلال القرآن الكريم
دراسة في التفسير الموضوعي التجميعي

د/ نورة بن حسن -جامعة باتنة-

مقدمة:

إن مما يلفت الانتباه تفاضل الأفراد والمجتمعات والدول على اختلاف الأزمنة والأمكنة، وتفاوتهم في الأرزاق والمواهب المختلفة، في شتى الميادين؛ العلمية والعمرانية والعسكرية وغيرها، حيث يفضل بعضهم بعضا، فتعيش بعض الدول لاسيما الكافرة التطور المذهل، والثراء الفاحش، وتعاني أغلب الدول المسلمة الفقر والفاقة والمجاعات وشدة الحاجة، ويرفل البعض في النعم المختلفة إلى حد الإسراف الذي لا يعرف الحدود، ويتطلع البعض الآخر إلى سد رمق الجوع دون أن نجد الفرق في الإمداد بين المؤمنين والكافرين. فلماذا هذا التفاضل بين الدول والأفراد ؟ وما أثره على العمران؟

يمكن الإجابة عن ذلك من خلال استقراء القرآن الكريم، وجمع ما ورد في هذا الموضوع من آيات، ودراستها وفق منهج التفسير الموضوعي التجميعي. وتفرض طبيعة هذا الموضوع الوقوف أولا عند تحديد مفهوم الرزق في اللغة والاصطلاح ثم بيان مقاصد التفاضل، وتذييل الموضوع بخاتمة تتضمن أهم النتائج المتوصل إليها، على أمل أن تخصص لتفاصيله رسالة علمية تقدم نظرة قرآنية عميقة ودقيقة وواضحة.

أولا: مفهوم الرزق

1- **في اللغة**: جاء في الصحاح "الرِزْقُ: ما يُنْتَفَعُ به. والجمع الأرْزاقُ. والرِزْقُ العطاءُ، وقد يُسَمَّى المطر رَزْقاً، وهو اتِّساعٌ في اللغة"[1].

والمقصود من الاتساع المجاز لأنه توسع في اللغة، وسمي المطر كذلك لأنه سبب في الرزق. ويتناول الرزق حسب هذا التعريف جميع ما ينتفع به، سيان في ذلك بين المأكولات والملبوسات والأموال والأولاد والأزواج والمعارف والعلوم والصحة والعافية والجاه وغيرها.

أما في لسان العرب: فالرَّزق بفتح الراء هو المصدر الحقيقي، والرِّزْقُ الاسم، ويجوز أن يوضع موضع المصدر، والرَّزْقُ على لفظ المصدر ما رَزقه إيّاه، والأَرزاقُ نوعانِ: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنُّفوس كالمَعارِف والعلوم، والرَّازِقُ والرّزَّاقُ في صفة الله تعالى لأَنه يَرزُق الخلق أجمعين[2].

2- **في الاصطلاح**: عرّف في الاصطلاح عدة تعريفات منها:

ما جاء في الكليات من أنّ الرزق يقال للعطاء الجاري تارة دنيويا كان أم أخرويا، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة، والرزق لا يتناول الحرام عند المعتزلة خلافا لأهل السنة. والرزَّاق لا يقال إلا لله تعالى، والرَّازِق يقال لخالق الرزق ومعطيه والمُسبب له، وهو الله تعالى، ويقال للإنسان الذي يصير سببا في وصول الرزق[3].

ففرق بين الرزَّاق والرَّازِق، إذ يختص الأول بالله ﷻ بينما يعم الثاني؛ فيطلق على الله ﷻ وعلى الإنسان الذي يصير سببا في وصول الرزق.

ولم يشترط البعض الحل والحرمة فقال: "هو ما ساقه الله تعالى إلى الحيوان فانتفع به سواء كان متصفا بالحلة أو الحرمة أو لم يكن حلالا ولا حراما مرزوقا كالدابة، فإنه ليس في حقها حل ولا حرمة"[4].

ويستخلص من هذه التعريفات أنّ الرزق اسم لكل ما ينتفع به الإنسان سواء كان ماديا أو معنويا، من الأعيان أو الأثمان حلالا أو حراما، أولم يتصف بذلك.

ثانيا: مقاصد التفاضل بين الأفراد والدول

استخلف الله الخلق في الأرض يملكونها ويتصرفون فيها، وجعلهم درجات ومراتب، يتفاوتون ويتفاضلون، فقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾ [5] وقال: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾[6]. أي: "وخالف بين أحوالكم، فجعل بعضكم فوق بعض، بأن رفع هذا على هذا، بما بسط لهذا من الرزق ففضّله بما أعطاه من المال والغِنى، على هذا الفقير فيما خوَّله من أسباب الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاه من الأيْد والقوة على هذا الضعيف الواهن القُوى، فخالف بينهم بأن رفع من درجة هذا على درجة هذا، وخفض من درجة هذا عن درجة هذا".[7]

تبين هاتان الآيتان أنّ نظام الكون والعمران وتحقيق الاستخلاف يقوم على أساس التفاضل بين الناس في توزيع الأرزاق، ويشمل المواهب والاستعدادات، والأعمال والمعايش. فقد فضل الله ﷻ بعض الناس على بعض في الدين والعقل والعلم والمال والولد والجاه والصحة والقوة وجودة النفس والذهن الشكل واللون وغير ذلك من أنواع الرزق. والتفاضل ملحوظ في جميع العصور والبيئات بين جميع الأفراد والدول.

ولا يعود في الحقيقة إلى الجهل أو العجز أو التقصير بل لمقاصد وأغراض كشف عنها القرآن الكريم في عدة مواطن، وهي: منع البغي في الأرض، اتخاذ الناس بعضُهم بعضًا سُخْرِيًّا والابتلاء.

1- منع البغي في الأرض: يربط القرآن الكريم بين البسط في الرزق والبغي ربطا وثيقا، فيجعل البسط في الرزق سببا للبغي مطلقا؛ في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**[8]﴾ فما المراد بالبسط والبغي؟ ولماذا يعد البسط موجبا للبغي ؟ وهل العلاقة بينهما حتمية ؟

هذه الآية (نزلت في قوم من أهل الصّفّة تمنوا سعة الدنيا والغنى).[9] والحادثة تبيّن أنّ المراد من البسط سعة الدنيا والغنى وكثرة الأموال، أمّا البغي فيراد به مجاوزة الحدود التي حدها الله تعالى. قال الألوسي: "وأصل البغي طلب أكثر مما يجب بأن يتجاوز في القدر والكمية أو في الوصف والكيفية".[10]

أي "ولو بسط الله الرزق لعباده، فوسّعه وكثرّه عندهم لبغوا، فتجاوزوا الحدّ الذي حدّه الله لهم إلى غير الذي حدّه لهم في بلاده بركوبهم في الأرض ما حظره عليهم، ولكنه ينزل رزقهم بقدر لكفايتهم الذي يشاء منه"[11].

ويفهم من الآية أن البسط في الرزق يؤدي في جميع الأحوال إلى البغي بمجاوزة حدود الشارع الحكيم، والوقوع في الظلم ونشر الفساد في الأرض مطلقا، وهو ما يؤكده قوله تعالى:﴿**إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّءاهُ استغنى**﴾ [12] فهل يعني ذلك أن هذه سنة لا تتخلف أبدا، وأن البسط في الرزق لا يجلب إلا الشر؟

لقد "حكم مطلقاً بأن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان. وأما العقل فهو أن النفس إذا كانت مائلة إلى الشر لكنها كانت فاقدة للآلات والأدوات كان الشر أقل، وإذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر، فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان"[13].

وفي الحقيقة بسط الدنيا وإن كان من أهم الأسباب التي توقع فعلا في البغي والظلم ونشر الفساد في الأرض عموما، والخروج عن الحدود التي شرّعها الشارع الحكيم إلا أنّ ذلك ليس دائما ولا على الإطلاق بل يرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة النفوس البشرية، هذه النفوس التي يميل بعضها للشر وبعضها للخير سواء بسط له الرزق أو ضيق. ولكن يعتبر البسط في الرزق مطية النفوس الخبيثة في ارتكاب الشر والاستشراء فيه.

وقد ذكر الرازي في كون سعة الدنيا سببا للبغي وجوها " الأول: أن الله تعالى لو سوى في الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادماً للبعض ولو صار الأمر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح. الثاني: أن هذه الآية مختصة بالعرب فإنه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من المطر ما يرويهم ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم أقدموا على النهب والغارة. الثالث: أن الإنسان متكبر بالطبع فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر، وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد إلى الطاعة والتواضع".[14]

أما ابن عاشور فيرى أن بسط الرزق للنّاس كلّهم سبب في إفسادهم لأنّه ينسي الالتجاء إلى الله من جهة، ويحمل على الاعتداء على الناس من جهة أخرى، ويشغل المؤمن عن العمل الذي يفوز به في الآخرة من جهة ثالثة، وهذا الاعتبار هو الذي أشار إليه النبي ﷺ حين قال للأنصار لما تعرّضوا له بعد صلاة الصبح وقد جاءه مال من البَحرين[15] "فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ"}[16]. وهذا ما فقهه السلف كما يظهر من قول قتادة: "كان يقال: خير الرزق ما لا يُطغيك ولا يُلهيك".[17]

وإن كانت الآية مختصة ببعض العرب إلا أن الحكم لا يقتصر عليهم بل عام يتناولهم كما يتناول غيرهم؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ونفس الإنسان عموما لا تشبع بل تطلب دائما المزيد، وهو ما فسر به ابن عباس ﷺ البغي فقال: "بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ومركبًا بعد مركب وملبسًا بعد ملبس".[18]

ويعتقد البعض أن المؤمن ينبغي أن يعيش في الضيق، ولذلك يتفاجأ عندما يكتشف أن بعض علماء الدين يعيشون حياة القصور بل ويقل تقديره لهم، وهذا خطأ فادح في الحقيقة، لأن السعي وراء الرزق الحلال بألوانه المختلفة، وجمع الأموال بالطرق المشروعة ليس من قبيل البغي، بل البغي طلب المنازل والمراكب والأرزاق المختلفة وجمع الأموال بالوسائل غير المشروعة، وصرفها في غير وجوه الحق تجاوزا للحدود الشرعية.

وهو ما أشار إليه حديث النبي ﷺ: "إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ أَوَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ فَقِيلَ لَهُ مَا شَأْنُكَ تُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ وَلَا يُكَلِّمُكَ؟ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ. قَالَ: فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحَضَاءَ فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ؟- وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ- فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضْرَاءِ أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ وَرَتَعَتْ وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ".[19]

وقد ضرب النبي ﷺ هنا للصحابة ﷺ مثلا فشبه فيه انجرار الشرّ عن الغنى وكثرة الأموال بما ينجم عن الربيع الذي هو أغنى الفصول نباتا من إصابة الماشية فيه بالحبط، وهو انتفاخ بطونها من كثرة الأكل ومجاوزة الحد فيه إلى درجة التُّخَمَة والاعتلال الذي قد ينتهي بالموت إلا إذا اقتصر من النبات على ما يكفي الحاجة فإنه لا يضر.

ثم ذيل الآية بقوله: ﴿**وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ ولفظ ينزل قرئ بالتضعيف والتخفيف[20] وقراءة التضعيف تتضمن معنى التكرار والتدرج في الإنعام، وهي أولى لما فيها من الدلالة على العناية الإلهية الدائمة بعباده.

فهو ﷻ عالم بأحوال الناس وطباعهم، ما يميل منها إلى الخير، وما يميل إلى الشر، وعالم بعواقب أمورهم؛ فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم، فلا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنّه علم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم[21]. فيبسط ويقبض تبعا للحكمة الربانية، ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا. [22]

وهذ ما يجليه قوله ﷻ في الحديث القدسي: "وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير".[23]

والإشكال المطروح هو أنّ كما يكون بسط الرزق والغنى سببَ البغي، فكذلك ضيق العيش والفقر قد يكون، بدليل أن النبي ﷺ كان يتعوذ من كليهما[24]. فلماذا جعل الغنى فقط شرطا للبغي دون الفقر؟

أجاب الزمخشري بأنّه "لا شبهة في أنّ البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن".[25]

وهذا ظاهر لأنّ الفقر يفتقد معه الإنسان عادة إلى وسائل وأدوات البغي والظلم، وإن كانت النفس تهفو إلى ارتكاب المحرمات، بخلاف الغنى وكثرة الأموال فإنّ صرفها في وجوه الباطل متيسر، وإن كان كلاهما معرض للبغي ولكن من الغني أكثر، ولعلّ هذا ما يومئ إليه فقه الإمام البخاري في صحيحه، إذ ذكر تعوذ النبي ﷺ من فتنة الاثنين؛ الغنى والفقر معا تحت عنوان يشير إلى الغنى فقط، وهو: "باب الاستعاذة من فتنة الغنى".

وأرجع ابن عاشور علة جعل الغنى فقط شرطا للبغي دون الفقر إلى أنّ الغنى مظنة البطَر والأشر إذا صادف نفساً خبيثة... فأما الفَقر فقلَّما كان سبباً للبغي إلا بغياً مشوباً بمخافة كبغي الجائع بالافتكاك بالعنف فذلك لندرته لا يلتفت إليه، على أن السياق لبيان حكمة كون الرزق بقدَر لا لبيان حكمةٍ في الفقر. فالتلازم بين الشرط وجوابه في قوله: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا**﴾ حاصل بهذه السببية بقطع النظر عن كون هذا السبب قد يخلفه ضده أيضاً، على أنّ بَين بسط الرزق وبين الفقر مراتب أخرى من الكفاف وضيق الرزق والخصاصة، والفقر، وهي متفاوتة فلا إشكال في التعليل.[26]

فمن مقاصد الشارع من التفاضل في الأرزاق بين الأفراد والدول منع البغي في الأرض لأن الغنى إذا صادف نفسا خبيثة اتخذته وسيلة لنشر الفساد في الأرض، وظلم الناس للشعور بالاستغناء عنهم، مما يؤدي إلى فساد نظام الحياة وخراب العمران، لقوله ﷺ: "إنه سيصيب أمتي داء الأمم، قالوا: يا نبي الله، وما داء الأمم ؟ قال: الأشر والبطر، والتكاثر والتنافس في الدنيا، والتباغض والتحاسد، حتى يكون البغي ثم يكون الهرج".[27]

2- **اتخاذ الناس بعضُهم بعضًا سُخْرِيًّا:**

قال تعالى: ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾.[28]

تشير الآية إلى أحد مقاصد التفاضل بين النّاس في توزيع الأرزاق والمعايش وجعلهم مراتب ودرجات، وهو اتخاذ الناس بعضُهم بعضًا سُخْرِيًّا، أي: "ليسخر بعضهم بعضا، في الأعمال والحرف والصنائع. فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم".[29]

قال البغوي: "ليستخدم بعضهم بعضًا فيسخر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل، فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش، هذا بماله، وهذا بأعماله، فيلتئم قوام أمر العالم".[30]

ولا يقتصر ذلك على الأموال فقط بل يشمل أنواع الرزق المختلفة، الباطنة والظاهرة، المادية والمعنوية، فهذه كلها لو تساوى الناس فيها لكانت سببا في استغناء بعضهم عن بعض، فيفضي ذلك بدوره إلى اختلال نظام الحياة وخراب العمران.

فالله ﷻ خلق الكون وجعل له نظاما يحكمه، ومن هذا النظام قانون التفاضل بين الناس في الأرزاق والمعايش، فجعل بعضهم محتاجاً إلى بعض ومُسخّراً له، إذ ما من أحد إلا وهو مستعمِل لغيره وهو مستعمَل لغيرٍ آخر، لقضاء شؤونهم وإشباع حاجاتهم جميعا، فيتعارفوا ويتجمعوا لأجل ذلك فتتكون من ذلك القبائل والمدن.[31]

ودولاب الحياة يدور بالجميع، ويسخر بعضهم لبعض. والتفاضل في الرزق هو الذي يسخر هذا لذاك في دورة الحياة. وكلهم مسخرون للخلافة في الأرض بهذا التفاضل. وهو ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة. ولو تساوى الناس في الأرزاق لاستغنى بعضهم عن بعض، ولتعطلت كثير من مصالحهم، وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العمران وفساد نظام الحياة، ولكن الذي أوجد الحياة وأراد لها الاستمرار، بناها على سنة التفاضل تبعا للأدوار المطلوب أداؤها. وعن هذا التفاضل في الأدوار يتفاضل الرزق وإن كانت نسبته قد تختلف من مجتمع إلى آخر، ومن نظام إلى آخر. ولكنها لا تنفي هذه الحقيقة التي تحكم الطبيعة البشرية. [32]

ولكن هذا التفاضل الدنيوي لا قيمة له عند الله تبارك وتعالى في مقابل التفاضل الأخروي لأنه لا يدوم، إذ سرعان ما يزول وينقطع بالموت، فإذا "خص بعض عبيده بنوع فضله ورحمته في الدين فهذه الرحمة خير من الأموال التي يجمعها لأن الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد"[33] لقوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ وقوله: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ لذلك يهب الله الدنيا للمؤمن والكافر على حد سواء بل يوسع أحيانا على الكافر ويضيق على المؤمن، ويدعو إلى التنافس في جمع الحسنات، والعمل ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

3- **الابتلاء**: ومن مقاصد التفاوت بين الخلق ما جاء صريحا في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [34] أي:" ليختبركم فيما خوَّلكم من فضله ومنحكم من رزقه، فيعلم المطيع له منكم فيما أمره به ونهاه عنه، والعاصي؛ ومن المؤدّي مما آتاه الحق الذي أمره بأدائه منه، والمفرّط في أدائه".[35]

فالتفاوت بين الخلق في النعم المختلفة في الحقيقة نوع من الاختبار والامتحان الذي يتعرض له الإنسان في الحياة فيما اختصه الله به من نعمة؛ ليميز الله المحسن من المسيء؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾[36] فيكشف بذلك عن حقيقة الناس، ويظهرها في الواقع المشاهد كما كانت معروفة لديه في عالم الغيب؛ لأن حقيقة الابتلاء والامتحان على الله محال.

ولهذا قال البقاعي: "أي يفعل معكم فعل المختبر ليقيم الحجة عليكم وهو أعلم بكم منكم".[37]

والابتلاء قد يكون بالشدة و الرخاء، بالشر والخير، لقوله تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[38] ومن ذلك ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [39] إذ الخوف والمجاعات والأمراض والفقر وفقدان الأهل والأحباب ونقص الثمرات، وإصابتهم بأنواع الرزايا والمصائب والشدائد كلها قد تكون من قبيل الابتلاء.

وكما يختبرهم بالشدائد يختبرهم بالرخاء وسعة العيش وكثرة النعم كالأمن والصحة والأموال والأولاد؛ ليتبين بهذا الامتحان من يصبر في حال الشدة، ومن يشكر في حال الرخاء والنعمة، فيختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، ويختبر الفقير في فقره ويسأله عن صبره، ويختبر العالم في علمه ويسأله ما الذي عمله به، وهكذا بالنسبة لسائر النعم والنقم. وهذا ما يؤكده قَول الرَسُول ﷺ: "لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى

يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ".[40]

فكل هذه النعم التي ذكرت في الحديث، من العمر والعلم والمال والقوة البدنية وغيرها يُسأل عنها الناس، لذلك ينبغي عدم الاغترار بها، والاجتهاد في صرفها في طاعة الله، وعدم اتخاذها وسيلة لركوب المعاصي ونشر الفساد بل وسيلة للطاعة والشكر والسّعي في زيادة الفضل.

وقد حذر النَّبِيّ ﷺ من الافتتان بزهرة الدنيا فقَالَ: "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا...".[41]

ومعنى الدُّنيا حلوة خضرة "يحتمل أنَّ المراد به شيئان أحدهما: حسنها للنُّفوس، ونَضَارتها ولذَّتها كالفاكهة الخضراء الحلوة، فإنَّ النُّفوس تطلبها طلبًا حثيثا، فكذا الدُّنيا. والثَّاني: سرعة فنائها كالشَّيء الأخضر في هذين الوصفين. ومعنى (مستخلفكم فيها) جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم، فينظر هل تعملون بطاعته، أم بمعصيته وشهواتكم.[42]

وبما أن الاختبار يسفر عن صنفين من الناس؛ طائع شاكر للنعمة و صابر على المضرة أو كافر للنعمة ومتضجر من الشدائد، ساق القرآن الكريم ما يفيد الترهيب والترغيب تخويفا من العصيان، وحضا على التنافس في الطاعات، فقال: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ أي لمن يريد عقابه ممن يكفر نعمته، فذكر العقاب مطلقا من كل قيد ليشمل العقاب الدنيوي والأخروي، ووصفه بالسرعة.

واختلف المفسرون في المقصود بهذا الوصف؛ فذهب بعضهم[43] إلى أن كل آت متحقق الإتيان والوقوع يحكم عليه بالقرب ويوصف به، بينما خالفهم ابن عاشور؛ إذ يرى أن هذا المعنى لا موقع له هنا، ولكن "استعيرت السّرعة لعدم التردّد ولتمام المقدرة على العقاب، لأنّ شأن المتردّد أو العاجز أن يتريّث وأن يخشى غائلة المعاقَب، فالمراد سريع العقاب في يوم العقاب".[44]

ثم فتح باب الرجاء لمن أذنب وتاب معلما أنه بليغ الغفران عظيم الرحمة؛ فقال: ﴿**وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ أي: "يغفر الذنوب ويستر العيوب في الدنيا بستر فضله وكرمه ورحمته، وفي الآخرة بأن يفيض عليه من أنواع نعمه".[45]

وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾[46] وقوله: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ وقول النَّبِيّ ﷺ:"إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي".[47]

وقد اقتصر في وصف "سريع العقاب" على مؤكِّد واحد، بينما عزز وصف "الغفور الرحيم" بمؤكدات ثلاثة وهي: إنّ، ولام الابتداء، والتّوكيد اللّفظي؛ لأنّ "الرّحيم" يؤكِّد معنى الغفور: ليُطمئِن أهل العمل الصّالح إلى مغفرة الله ورحمته، وليَسْتَدعي أهلَ الإعراض والصدوف إلى الإقلاع عمّا هم فيه".[48]

و"تأكيده الثاني دون الأول ناظر إلى قوله: ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾[49] "إنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي" لأنه في سياق التأديب لهذه الأمة والتذكير بالإنعام عليهم بالاستخلاف".[50]

الخاتمـــة:

يمكن أن نخلص بعد هذه الدراسة الموجزة إلى النتائج الآتية:

1- لا يقتصر الرزق على الماديات كالمأكولات والملبوسات بل يشمل كل ما ينتفع به ماديا كان أو معنويا كالعلوم والمعارف والأخلاق الحسنة والمواهب المختلفة وغيرها.

2- أنّ الله ﷻ أوجد هذا الكون، وأراد له الاستمرار، فبناه على نظام محكم، ومن قوانين هذا النظام سنة التفاضل بين الناس في الأرزاق والمعايش، التي سخرت بعضهم لبعض، بحيث لا يستغني بعضهم عن بعض، سخرت الكل لتحقيق وظيفة الاستخلاف.

3- التفاضل بين الأفراد والدول في الأرزاق يمنع سيادة البغي في الأرض، لأن الشعور بالاستغناء عن الله ﷻ وعدم الحاجة إليه ولا إلى عباده يدفع الظلم بأنواعه المختلفة، ومجاوزة الحدود التي حدّها الشارع الحكيم.

4- وإن كان التفاضل الدنيوي سنة من سنن الحياة التي سرعان ما تنقطع بالموت، إلا أنه لا ينبغي ترك التنافس فيه بدعوى كون التفاضل الأخروي أدوم، وإلا عاش المسلمون حياة الذل والهوان أمام التطور الذي تشهده الدول الكافرة.

الهوامش:

[1]- إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عطار، ط 4، (دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1990م)، مادة: "رزق"، ص 472

[2]- محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ط:1، (دار صادر، بيروت، لبنان، د،ت)، 115/10.

[3]- أبو البقاء الكفوي، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، فهرسة عدنان درويش، محمد المصري، ط:2، (مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، 1419هـ/1998م)، ص 473.

[4]- محمد علي التَهانَوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم رفيق العجم، تحقيق علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية عبد الله الخالدي ، الترجمة الأجنبية جورج زيناتي، مكتبة لبنان، ناشرون، 858/1.

[5]- الأنعام: 164.

[6]- الزخرف: 32.

[7]- الطبري، تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، (1420هـ/ 2000م) ، 288/12.

[8]- الشورى: 27.

[9]- أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، طبعة متضمنة انتقادات الذهبي وبذيله تتبّع أوهام الحاكم التي سكت عليها الذهبي لأبي عبد الرّحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، (1417هـ/1997م)، كتاب التفسير، تفسير سورة حم سق، 523/2 برقم: (3720) عن علي ﷺ

[10]- شهاب الدين محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط.ت)، 38/25.

[11]- الطبري، جامع البيان، 535/21.

[12]- العلق: 6- 7.

[13] - فخر الدين الرازي، التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، ط:1، (دار الفكر، لبنان، بيروت، 1401هـ/ 1981م)،27 /171 .

[14]- نفسه،172/27.

[15]- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، (1984م)، 25/ 92.

[16]- أخرجه مسلم في صحيحه، فهرسة محمد تميم، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط1، (1419 هـ /1999م)كِتَاب الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، ص1411، رقم(7535).

[17]- أخرجه الطبري، جامع البيان،536/21.

[18]- البغوي، تفسير البغوي المسمى معالم التنـزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط4، (1417هـ/1997م)، 7/ 194.

[19]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب تخوُّف ما يخرج من زهرة الدُّنيا، ص465-466 برقم(2385)، (2386).

[20]- قرأه ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف من الإنزال والباقون بالتشديد، [ينظر الرازي، التفسير الكبير،172/27.

[21]- الرازي، التفسير الكبير،172/27.
[22] - جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرون، ط:1، (مكتبة العبيكان، 1418هـ/ 1998م)، 409/5.
[23]- أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط: 1، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1409هـ/ 1988) في ترجمة الحسين بن يحي الحسني، ج 8 برقم (400).
[24]- أخرجه البخاري في صحيحه، اعتنى به صهيب الكرمي، (بيت الأفكار الدولية للنشر، الرياض، د.ط 1419هـ /1998م). كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من فتنة الغنى، ص1225، برقم (6376).
[25]- الزمخشري، الكشاف، 409/5.
[26]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 93/25.
[27]- ابن أبي الدنيا، ذم البغي، تحقيق نجم الدين خلف، (دار الراية، الرياض، سنة 1409هـ)، ص5.
[28]- الزخرف: 32.
[29]- عبد الرحمن بن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، ط: 1، (1420هـ/ 2000 م)، 764/1.
[30]- البغوي، معالم التنزيل، 212/7.
[31]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 202-201/25.
[32]- سيد قطب، في ظلال القرآن، مطابع الشروق، القاهرة، ط15، (1408هـ/1988م)، 352/6.
[33]- الرازي، التفسير الكبير، 211/27.
[34]- الأنعام: 164.
[35]- الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، 289/12.
[36]- الكهف: 7.
[37]- الأنبياء: 35.
[38]- الكهف: 7.
[39]- البقرة: 155.
[40]- أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، ط1، (دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1422 هـ/ 2002م)، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب في القيامة، ص544-545. برقم (2416) و(2417).
[41]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، ص1309 برقم (7048).
[42]- محي الدين النووي، شرح صحيح مسلم المسمى المنهاج لشرح صحيح مسلم بن الحجاج، تحقيق خليل مأمون شيحا، ط4،(دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1418هـ/1997م)، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، 55/17.
[43]- الزمخشري، الكشاف، 450/2؛ أبو محمد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام محمد، ط: 1، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ/ 2001م)، 371/2.
[44]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 212/8.
[45]- الرازي، التفسير الكبير، 15/14.

[46]- الأنعام: 12.

[47] - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم ص1414برقم (7422)؛ وأحمد ابن حنبل، في مسنده، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، (1416هـ/1996م)، 467/12برقم (7500).

[48]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 212/8.

[49]- الأنعام: 12.

[50]- برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط: 1، (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،1391هـ/1972م)، 345/7.